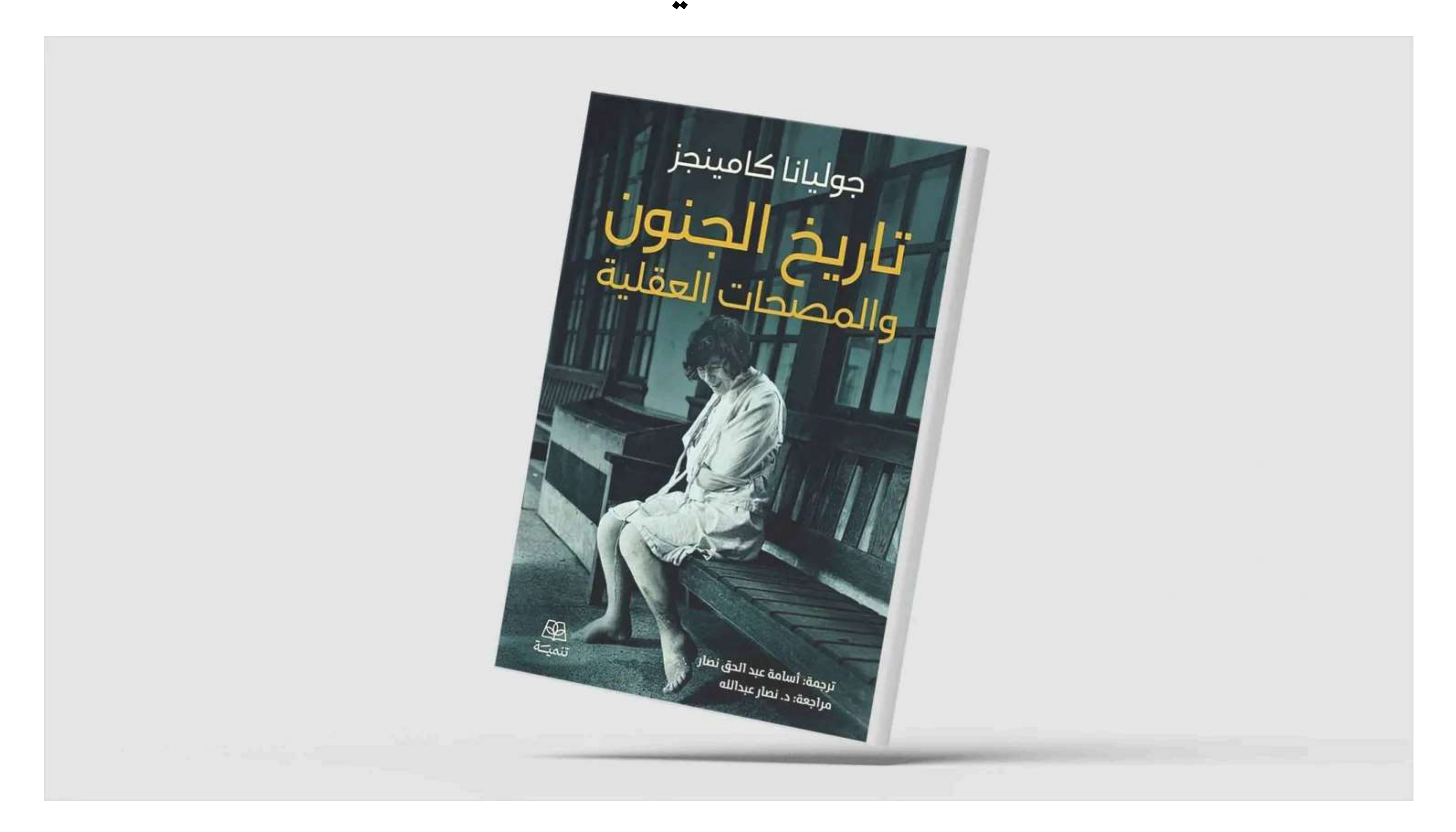
سردية تاريخية لفهم «الجنون»

كتاب المؤرخة الأميركية جوليانا كامينجز في ترجمة عربية



القاهرة: منى أبو النصر

نُشر: 16:13-11 يونيو 2025 م . 15 ذو الحِجّة 1446 هـ

خلال القرنين التاسع عشر والعشرين في كتابها «تاريخ الجنون والمصحات العقلية»، تنطلق الكاتبة والمؤرخة الأميركية جوليانا كامينجز في رحلة موصولة بشغف طويل لتتبع تاريخ المرض العقلي، ومفارقات التعامل معه التي تتقاطع فيها الخرافة والجهل والتجارب العلمية الطويلة في هذا المضمار.

صدرت ترجمة الكتاب أخيراً بالعربية عن «دار تنمية» للنشر والتوزيع بالقاهرة، بتوقيع المترجم المصري أسامة عبد الحق نصار، الذي عدَّ في مقدمته أن الكتاب يمثل محاولةً لـ«فهم تطور العقل البشري من خلال تعامله مع موضوع الصحة العقلية والسلامة النفسية»، بالطبع، لا يمكن استيعاب التطور البالغ في هذا المجال دون التوقف عند محطات من اعتقادات العصور القديمة حول المرض العقلي، بدايةً من الاعتقاد في كونه ضرباً من العقاب الإلهي أو المس الشيطاني، وصولاً لكونه اختلالاً في توازن «الأخلاط

الأربعة» المكونة لجسم الإنسان، حسب اعتقاد الإغريق القدامى، التي يُفصلها الكتاب، وغيرها من الاعتقادات التي أعلت من شأن التفسيرات الميتافيزيقية، التي تقع على طرف النقيض من الثورة العلمية في مجال المرض العقلي في العصر الحديث.

تختار مؤلفة الكتاب مدخلاً إنسانياً لكتابها، تحكي فيه عن تجربة أحد مرضى «الفصام» المحتجزين في مستشفى «ماكلين» بوسط بوسطن عام 1951، حيث كان يخضع المريض الشاب لإحدى وسائل العلاج الشائعة آنذاك باستخدام صدمات الأنسولين، وكان يعالج قسرياً لمعاناته من نقص السكر في الدم عبر جلسات على مدار عدة أيام متتالية تعتمد بالأساس على إخضاع المريض لزيادة الحقن بجرعات الأنسولين ما يجعله يدخل في تجربة منهكة للغاية. وتعدُّ الكاتبة من خلالها عن ذلك الميراث الطويل من الشقاء الذي عرفته جدران المصحات العقلية عبر تاريخها، وتقول إنه في النهاية رغم ما كانت تبدو عليه محاولات علاج الجنون «همجية» فإنها لم تكن تخلو من رغبة عميقة من أطباء تلك العصور لمساعدة مرضاهم.

وصمة الجنون

يقع الكتاب في 362 صفحة، ويتطرق عبر 10 فصول لتطوّر فهم الجنون منذ العصور الوسطى، وصولاً للتعامل مع المرض العقلي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، والاتجاه لإغلاق المصحات العقلية في العصر الحديث. ولعل الفصول الأولى من الكتاب هي الأكثر «درامية» لفرط ما تسلّط من ضوء على أوجه الشطط في التعامل مع الجنون، لا سيما من وجهة نظر السردية المجتمعية، إذ كان يُنظر للمجانين قبل القرن الخامس عشر في إنجلترا، على سبيل المثال، بوصفهم «حمقى القرية»، فيما كان وجود شخص «مجنون» في عائلة أمراً مخجلاً. تقول الكاتبة: «كان من المعتاد سماع قصص العائلات التي تضع أفراد العائلة المجانين في حظائر الحيوانات، أو حتى تقييدهم بالسلاسل». ويشير الكتاب إلى أن تلك النظرة ظلّت مستمرةً حتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث بدأت تتغير في بريطانيا العظمى، ولم يعودوا ينظرون إليهم برعب، وعندها أصبح يتم التعامل مع المجانين بطريقة غير قاسية.

وكان الجنون في العصور القديمة يعدُّ محض روح شريرة تصيب الجسد، حتى أن أدلة يعود تاريخها إلى 7 آلاف عام مضت، تُظهر استخدام ما يعرف بـ«منشار الجمجمة»، وهي تقنية استخدمت لعمل ثقب للسماح بخروج الروح الشريرة من الجسد، وهو فهم وُجدت جذوره لدى الإغريق والرومان القدماء، وسط إيمان بارتباط الاضطرابات العقلية بغضب الآلهة، علاوةً على اللجوء للمعابد كمعبد الإله «أسكليبيوس» التماساً للشفاء، بما في ذلك الأمراض العقلية، وصولاً لجهود الطبيب اليوناني الأشهر «أبقراط» الذي يعد أول من فهم أنماط الإضرابات العقلية، بما فيها الهوس والكآبة والارتياب والذعر، وذلك بعد أن نظّر للمرض العقلي بوصفه تأثير الطبيعة على الإنسان، وأصّر على أن الدماغ هو المسؤول عن الأمراض

العقلية، وأن ذكاء المرء وحساسيته تصلان إلى الدماغ عبر الفم أو من خلال التنفس، كما وجد أن الموسيقى يمكنها أن تعالج الروح، كما من شأنها أن تعالج الجسد، وهو ما تشير إليه الكاتبة باعتباره تأسيساً لدراسة العلوم الحديثة حول تأثير الموسيقى على الدماغ والصحة العقلية.

تشريح الكآبة

تتعقب المؤرخة الأميركية أبرز الكتابات حول الجنون منذ القرن السادس عشر، وتتوقف عند كتاب الإنجليزي روبرت بيرتون (1577 - 1640)، التي تقول عنه إنه رصد «المالنخوليا» أو «الكآبة» التي بلغت ذروتها في عصر الملكة إليزابيث. وكان بيتون قد قدم في كتابه المعنون بـ«تشريح الكآبة» تلخيصاً للمعرفة البشرية المتعلقة بالكآبة، علاوة على انشغاله بالرابطة بين المبدعين في الشعر والفلسفة والأدب والإصابة بالكآبة. وتعدُّ الكاتبة أن ملاحظة بيرتون كانت رائدة في مجالها «وسابقة لعصره». ثم تلتها بعد سنوات دراسات تتبع علاقة الكآبة بالعبقرية الفنية، كما في حالة الموسيقار النمساوي أماديوس موتسارت، الذي أفردت «مجلة الطب النفسي» عام 2005 دراسة موسعة حول إصابته بالمالنخوليا في ضوء حالة الحزن والكآبة التي عانى منها خلال سنوات حياته الأخيرة، التي عبّر عنها في رسائله، ووصف فيها شعوره بالحزن المستمر وضعف قدرته على التركيز، وحتى انخفاض المتعة التي يشعر بها خلال تأليف الموسيقى، و«كان بحاجة مستمرة إلى تأكيد أنه محبوب» كما تشير الدراسة، التي تفيد بأن نوبات الكآبة والغضب رغم ذلك كانت تتبعها نوبات رائعة من الإبداع.

وتبدو المفارقة أن بيرتون نفسه استخدم الكتابة نوعاً من العلاج، ووصف في كتابه «تشريح الكآبة» كثيراً من معاناته الذاتية حتى أوصى أن تكتب على شاهد قبره العبارة التالية: «لمن أعطى حياته ومماته للمالنخوليا».

ثم يتتبع الكتاب بدايات تدشين المصحات العقلية في أوروبا في نهايات القرن الثامن عشر مع تأسيس طائفة «الكويكرز» لمصحة «يورك» العقلية، وصولاً للتوسع بها في القرن التاسع عشر وحتى العصر الفيكتوري، ورصد حركة القوانين التي بدأت في مسايرة تلك الكيانات مع تطوّر فحوص الطب العقلي، وانعكاس ذلك على معاملة المرضى داخلها، والسماح لهم بالحركة داخل المصحات، ومراجعة مسألة ربطهم بالسلاسل خوفاً من أن يتسببوا في إيذاء أنفسهم أو الآخرين.

ويتوسع الكتاب في إبراز تغير المصحات بشكل جذري في بريطانيا بداية من خمسينات القرن العشرين، مع تطور طرق العلاج والاختراعات الدوائية. وتتوقف المؤلفة عند ما أحدثته الحرب العالمية الثانية من تكدس نزلاء المصحات الذين يعانون من صدمة الحرب، ما دفع مع الوقت لازدياد الضغوط لتحسين الأحوال المعيشية داخل المصحات، وكان أحد التحسينات في أعقاب الحرب هي سياسة الأبواب المفتوحة، التي سمحت للمرضى بالتنقل في حرية داخل المستشفى، وصولاً إلى الاتجاه لإغلاق

المصحات في العديد من أنحاء بريطانيا، التي تبقى بها عدد قليل ممن يحتاجون إلى رعاية طويلة، وتعلق الكاتبة: «في حين أن كثيراً من المصحات العقلية الحكومية في بريطانيا أُغلقت أبوابها وهُدمت مبانيها، إلا أن تاريخها يظل شاهداً على تاريخ الطب النفسي في السنوات الماضية».

مواضيع

أدب | كتب | مصر